الكوارث الطبيعية في بلاد الشام في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وبعض أبعادها الاقتصادية والاجتماعية

د . سلطان جبر سلطان (*)

تعرضت بلاد الشام في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، لكوارث طبيعية وبشرية، قلما تعرضت لها بلاد من بلدان المسلمين، ففي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام مسرحا للصراع بين القوى الإسلامية والصليبيين المحتلين، لم تلح في الأفق نهاية قريبة لذلك الصراع، ولم تترك جل المصادر التاريخية شاردة وواردة عنها إلا وأحصتها، في حين كانت الطبيعة بين الحين والآخر تذكي النار ضراما ، وتزيد الطين بلة. محدثة المزيد من الدمار المادي والبشري، الذي لم تكن الشام بحاجة إلى المزيد منه.

وقد عبرت الطبيعة التي هي من صنع الله عن غضبها بطرائق مختلفة، لعل أشدها فتكا وأكثرها رعبا وقسوة الزلازل . التي وقف الإنسان منذ القدم عاجزا عن مقاومتها، فكان لمدن الشام وأعمالها نصيب وافر منها، ففي سنة 508هـ/ 1114 م ضرب زلزال شديد بلاد الشام والجزيرة، فأحدث تدميرا كبيرا في مدن الرها التي تقع بين الموصل والشام ، والتي تبعد عنهما ستة وثلاثين كلم [1]، وحران التي تبعد

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل

(1) الحموي: ياقوت، معجم البلدان، (بيروت، 1975)، 106/3 .

عن الرها سبعة وثلاثين كلم[2] وسمسياط وبالس الواقعتين بين حلب والرقة[3]، فقتل كثير من الناس تحت الأنقاض التي أحدثها الزلزال[4]، ولم تذكر المصادر التاريخية أرقاماً محددة عن تلك الخسائر.

وأصاب الشام زلزال آخر سنة 533هـ / 1138م، و كان أكثر قوة وأشد فتكا في مدينة دمشق [5]، ولأيام متتالية بدأت من بعد ظهر يوم الثلاثاء الرابع من صفر[6] بهزة أرضية هائلة رجت المدينة ثلاث مرات، وتكررت في وقت العشاء في يوم الجمعة من الشهر نفسه ولاكثر من مرةايضا، وفي ليلة الاثنين التاسع عشر من صفر عاو الزلزال يضرب دمشق ثلاث مرات، وكذلك في يومي الأربعاء والجمعة في الشهر ذاته[7] محدثا خسفا في مساحة كبيرة من الأرض، يغطيها ماء اسود، وكانت حصيلة الخسائر من جراء ذلك قد بلغت مئتين وثلاثين ألف قتيل [8]، وربما قدرت أكثر المصادر اعتدالا تلك الخسائر بمئة ألف قتيل[9]، وعلى الرغم من

---

(2) الحموي : معجم ، 235/2 ، فالتر هنتس : الموازين والمكاييل الإسلامية ط ،(عمان ، 1970) ص94 وينظر محمد صديق : تجارة العراق مع بلدان المشرق ، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة الموصل ، ص 76 .

(3) المصدر نفسه : 328/1 .

(4) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (بيروت ، 1966) ، 580/10 .

(5) ينظر : الخريطة رقم (1) .

(6) ابن القلانسي : ذيل تاريخ مدينة دمشق ، (بيروت ، 1908) ، ص 68 ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ط1 ، (الطبعة الحسينية ، 1325 هـ) ، 15/3 .

(7) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، أبو الفداء : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(8) ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ط1 ، (بيروت ، 1971) ، ص 109 .

(9) الذهبي : دول الإسلام ، (القاهرة ، 1974) ، ص 38 .

ان تلك الحصيلة من الخسائر مبالغ فيها، إلا أنها تعكس حجم الدمار الذي لحق بالمدينة.

وتأثرت مدينة حلب وما جاورها بذلك الزلزال بشكل كبير، وكان ذلك في يوم الخميس الثالث عشر من صفر، حين سمع الناس دويا عظيما أعقبه هزات ارتدادية بلغت في الليلة الواحدة مئة هزة[10]، فتهدمت كثير من دورها واضطربت جدران القلعة وتشعثت أسوارها[11]، فخرجت الأحجار من الحيطان على الطريق [12] مما اضطر الناس الى ترك منازلهم واللجوء الى الصحراء [13] ، لكونها أراضاً منفتحة ومكشوفة. فهي اكثر أمانا على حياة الناس.

وحوَّل الزلزال حصن الاثارب الذي يقع إلى الغرب من مدينة حلب والذي يبعد عنها ثمانية عشر كلم[14] إلى ركام مخلفا ستمئة قتيل لم يسلم من ساكنيه سوى الوالي وقلة من اتباعه[15] ، ولقيت القلاع والحصون التي تقع إلى الغرب من مدينة حلب مثل تل عمارة وتل خالد وزردنا المصير نفسه[16]. وقد وصف ابن العديم [17] زلزال سنة 533هـ وصفا بليغا فقال: "وشوهدت الأرض تموج والأحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال".

---

(10) الذهبي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(11) ابن القلانسي : ذيل ، ص 268 ، ابن الأثير : الكامل ، 71/11 .

(12) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(13) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، (بيروت ، 1954) ، 582/2 .

(14) ابن الأثير : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، أبو الفداء : المصدر نفسه والصفحة نفسها . هنتس المرجع نفسه والصفحة .

(15) الحموي : معجم ، 89/1 .

(16) ابن العديم : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(17) الحموي : معجم ، 41/2 ، 136/3 .

وقد خلف الزلزال آثارا اجتماعية واقتصادية خطيرة في بلاد الشام عموما وحلب تحديداً، إذ لم يتمكن الحلبيون من دفع ما كان قد فرضه الاتابك عماد الدين زنكي حينما عزم على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها منذ زمن الأمير شمس الملوك رضوان بن تتش الى آخر أيام الأمير ايلغازي [18] من قطيعة بلغت عشرة آلاف دينار[19]، فما كان من زنكي إلا أن ألغى بقية المبلغ، والطريف في الأمر أن الاتابك زنكي كان حاضراً في القلعة أثناء وقوع الزلزال فخرج مسرعا إلى ميدان القلعة حافيا[20].

وضرب الشام زلزالان الأول في سنة 544هـ / 1149م[21]، ويبدو انه لم يكن مدمرا لقلة الخسائر المادية والبشرية، والثاني في الثالث عشر من جمادي الآخرة من سنة 546هـ / 1151م، وهو أقوى واكثر تدميرا من سابقه، فتزلزلت كل من بُصْرَى وحوران الوقعتين الى الجنوب والجنوب الشرقي لمدينة دمشق[22] ثلاث مرات تشققت بسببه جدران المنازل[23]، وتكررت في الثاني من شوال - الثاني من شباط[24]. ولم تسفر عن خسائر مادية وبشرية كبيرة[25].

وفي منتصف ليلة الخميس في السادس من شعبان - السابع والعشرون من أيلول سنة 551هـ / 1156م تعرضت دمشق لزلزال عنيف رجت الأرض ثلاث

---

(18) ابن العديم : زبدة ، 2/634-635 .

(19) ابن الأثير : الكامل ، 11/635 ، ابن العديم : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(20) ابن الأثير : نفسه والصفحة نفسها ، ابن العديم : نفسه، والصفحة نفسها .

(21) أبو الفداء : المختصر ، 3/22 .

(22) الحموي : معجم ، 1/44 و 2/317 .

(23) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولة النورية الصلاحية ، (1287 هـ .د. م) ، 1/83 .

(24) ابن القلانسي : ذيل ، ص 317-318 ، أبو شامة : الروضتين ، 1/84 .

(25) ابن القلانسي : ذيل ، ص 335 .

الى أربع مرات، وتكررت في ليلة الثاني والعشرون من شعبان وأخرى في النهار، أعقبتها ثلاث إلى ست هزات[26] وبعد ثلاثة أيام من الشهر نفسه وعاد مرة أخرى ليضرب وبعنف آثار الهلع في نفوس الناس [27]، كما تعرضت دمشق في شهر رمضان في السنة ذاتها إلى زلزال عنيف هدم كثيراً من منازلها وقتل على أثرها لعديد من الناس[28].

وطال زلزال سنة 551 هـ مدن حلب وحماة، فتهدمت فيها كثير من الدور والمواضع[29] بينما تهدم أحد أبراج افامية وهي من الأعمال الساحلية التابعة لمدينة حمص[30]. وبلغ عدد الهزات[31] الأرضية فيها أربعين هزة [32] مما اضطر سكان بلدة كفر طاب الواقعة بين مدينة حلب والمعرة إلى الهروب إلى المناطق المكشوفة[33] خوفا من تهدم المنازل على رؤوسهم.

ويعد الزلزال الذي أصاب بلاد الشام في رجب سنة 552هـ / 1157م من أعنف وأخطر الزلازل التي تعرضت لها، فقد تتابعت عليها في كل يوم عدد كبير من الهزات الارتدادية المروعة[34]، وخلفت دمارا كبيراً فلم ينجُ من بني منقذ وهم أمراء شيزر وإلا الخاتون أخت شمس الملوك، وهي زوجة الأمير تاج الدولة بعد

---

(26) نفسه، والصفحة نفسها .

(27) نفسه ، والصفحة نفسها.

(28) ابن القلانسي : نفسه والصفحة نفسها ، الذهبي : دول ، ص 48 .

(29) ابن القلانسي : نفسه ، والصفحة نفسها.

(30) الحموي : معجم ، 227/1 .

(31) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(32) الحموي : معجم ، 470/4 .

(33) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(34) نفسه ، ص 346 .

أن أخرجت من تحت الأنقاض [35]، بينما قتل زوجها الأمير تاج الدولة بن أبي عساكر بن منقذ ومن معه[36].

وكان أمير شيزر قد دعا الناس لحفل الختان الذي أعده لولده في داره ، فلما حدثت الزلزلة أتت على الجميع[37] باستثناء خادم وامرأة[38] مما دفع الملك العادل نور الدين محمود إلى التوجه في الثالث من جمادي الآخرة سنة 553هـ / 1158م إلى شيزر[39] وإعادة اعمارها خوفا من استيلاء الصليبيين عليها.

وقد وقف الأمير أسامة بن منقذ [40] على أطلال شيزر مبهوتا حيراناً آسفا، واصفا إياها بلوعة واسى بقوله "وهي أول أرض مثل جلدي 000 فما عرفت داري ولا دور والدي واخوتي ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيرا مستعيذا بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما حول من نعمائه000 وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان، بل كان هلاكهم اجمع كارتداد الطرف أو أسرع".

فنظم أيضا الأبيات الآتية :

---

(35) ابن العديم : زبدة ، 671/2 .

(36) ابن القلانسي : ذيل ، ص 344 ، ابن العديم : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(37) أبو الفداء : المختصر ، 33/3 .

(38) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، مخطوطة (194) ، بغداد ، م1 ، ج140/8 ، الهبي : العبر في خبر من غبر ، (الكويت ، 1963) ، 146/4 .

(39) العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، (دمشق ، 1955) ، 497/1 ، أبو الفداء : المختصر ، 31/3 .

(40) المنازل والديار ، (القاهرة ، 1968) ، ص4 .

روتنا زلازل حادثات بقضاء قضاه رب السمـــاء

هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهلها بوء القضاء

وبلاد كثيرة وحصونها وثغورا موثقات البناء

وإذا ما رأت العيون اليها أمرت الدمع عندها بالدهاء (41)

ونظم الأمير شرف الدولة إسماعيل بن منقذ الذي كان غائبا وقت حدوث الزلزال في شيزر قصيدة مطلعها:

ليس الصبح من السماء بأمثل فأقول لليل الطويل ألا انجلي

يا تاج دولة هاشم بل يا أبا التيجان يا قصد كل مؤمل

لو عاينت عيناك قلعة شيزر والستر دون نسائها لم يسبل

لرأيت حصنا هائل المرأى غدا متهلهلا مثل النقا المتهيل

لا يهتدي فيه السعادة لملك فكأنما تسدي بقاع مهول (42)

بينما هدم الزلزال معظم مدينة حماة [43]. وتهدمت قلعتها وسائر دورها ولم ينج من السكان إلا القليل[44]، ويروى ان معلما بحماة فارق المكتب لحاجة فعندما

---

(41) ابن القلانسي : المصدر والصفحة نفسها .

(42) ابن العديم : المصدر والصفحة نفسها .

(43) ينظر : الخريطة رقم (1) .

(44) ابن القلانسي : المصدر والصفحة نفسها ، ابن الأثير : الكامل ، 218/11 .

وقع الزلزال سقط المكتب على الصبيان جميعهم فقال المعلم: "فلم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له هنـاك"[45]، و تهدمت سَلَمْية[46] وما جاورها من جهة الرحبة[47] في حين سوَّى الزلزال قلعة افامية وهي إحدى الأعمال الساحلية التابعة لمدينة حمص[48] وانشق تل جبران الذي يبعد عن مدينة طرطوس الساحلية سبعة عشر كم[49] الى نصفين فكشف عن آثار قديمة[50] ، وفي اللاذقيـة[51]، فقد كشف الزلزال في أحد المواقع التي طالها عن آثار قديمة لبعض التماثيل[52].

أما مدينتي دمشق وحلب فقد تأثرتا بزلزال سنة 552هـ بشكل كبير فتعرضت دمشق في شهر رجب / لسلسلة من الهزات ولعدة أيام لم تشهدها من قبل، وكان الجامع الأموي من اكثر المنشآت تضررا إذ سقط الكثير من فصوصه ، مما جعل إعادته الى ما كان عليه أمرا غاية الصعوبة.

وفي يوم الأربعاء السابع والعشرون من رمضان انتابت دمشق نوبات من الزلازل ولعدة أيـام في كل يوم عدد كبير من الهزات الارتدادية مصحوبة بصيحات توفي على أثرها عدد من الأشخاص، ثم عاودتها في ليلة السبت العاشر من شوال

---

(45) ابن الأثير : المصدر والصفحة نفسها ، أبو الفداء : المختصر ، 33/3 .

(46) سلمية بفتح السين واللام وتسكين الميم ، بلدة صغيرة من أعمال مدينة حماة . وكانت تعد في السابق من أعمال مدينة حمص ، الحموي : معجم ، 240/3 .

(47) ابن القلانسي : ذيل ، ص 344 .

(48) الحموي : معجم ، 227/1 .

(49) المصدر نفسه ، 41/2 . هنتس نفسه .

(50) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ط 1 ، (الدكن ، د. ت) ، 176/10-177 ، سبط : مراة، م1 ج8/ 140 .

(51) إحدى المدن الساحلية التابعة لمدينة حلب . الحموي : معجم ، 5/5 .

(52) ابن الجوزي : المصدر نفسه والصفحات نفسها .

بعد صلاة العشاء، وتلتها هزات أخف من سابقاتها ثم سكنت[53]، لكنها أحدثت من حالة الهلع والخوف التي انتابت سكان المدينة الذين تركوا دورهم وحوانيتهم، وهربوا إلى البساتين والصحراء والأماكن الخالية من البناء بعد ان فتح لهم باب المدينة، فأقام الناس خارج المدينة عدة ليال متضرعين إلى الله سبحانه وتعالى بالتهليل والتسبيح[54].

وفي حلب تهدمت كثير من الدور[55]، وبلغت الخسائر في الأرواح خمسمئة شخص[56].

في حين لم ينج من سكان كفر طاب الواقعة بين حلب والمعرة [57] إلا قليلاً منهم[58]، ولقيت المصير ذاته افامية وهي من أعمال مدينة حمص[59] بعدما ساخت قلعتها[60] وانقسم تل عزاز[61] إلى نصفين كشف من نواويس ودور كثيرة[62].

وطال الزلزال كذلك مدن الساحل التي بيد الصليبيين[63]. فأصاب الدمار مدن صور وبيروت وعكا وطرابلس وإنطاكية [64] التي دفن معظم سكانها تحت

---

(53) ابن القلانسي : ذيل ، ص 345 .

(54) المصدر نفسه ، ص 346 .

(55) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(56) الذهبي : العبر ، 146/4 ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 151 .

(57) الحموي : معجم ، 470/4 .

(58) ابن القلانسي : ذيل ، ص 343 ، ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(59) الحموي : معجم ، 227/1 .

(60) ابن القلانسي : ذيل ، ص 343 ، ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(61) تعني الأرض الصلبة وهي قلعة تقع إلى الشمال من حلب . الحموي : معجم ، 18/4 .

(62) ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه والصفحات نفسها .

(63) ابن الجوزي : المصدر نفسه والصفحات نفسها .

(64) ينظر الخريطة رقم (2) .

الأنقاض[65]. بينما لم يسلم من سكان اللاذقية [66] إلا قليلاً منهم [67]، وكذلك حصن الأكراد[68] فتشققت أسوار تلك المدن وسقطت معظم أبراج القلاع[69].

وكاد زلزال سنة 552هـ ان تكون له تداعيات سياسية خطيرة على الممالك والإمارات الإسلامية في الشام لولا مسارعة الملك العادل نور الدين محمود في الذب عن أطراف الثغور بعدما علم بتجمع الصليبيين وطمعهم بالبلاد [70]، فكان يغير على الصليبيين تارة ويعيد بناء الأسوار وترميمها تارة أخرى، حتى تمكن من إعادة جميع الأسوار على ما كانت عليــه [71] .فتوجه إلى شيرز في الثالث من جمادي الأولى سنة 553هـ فضمها إلى ملكه[72] وسلَّمها إلى أحد ولاته وهو مجد الدين بن الداية[73] بعدما كانت من ملك منقذ قرابة المئة وعشرين عاما[74].

وفي الخامس عشر من ربيع الأول سنة 553هـ / 1158 م، ضرب مدينة حلب زلزال قوي روع الناس فتصدعت على إثره الأبنية والمساكن، وبعد عشرة أيام من الشهر ذاته تعرضت مدينة دمشق إلى زلزال متوسط القوة لم يسفر عن

---

(65) ابن الجوزي : المصدر نفسه والصفحات نفسها : ابن قاضي : المصدرنفسه والصفحة نفسها .

(66) إحدى مدن الساحل التي كانت تابعة إداريا لمدينة حلب ، الحموي : معجم ، 5/5 .

(67) ابن الجوزي : المصدر والصفحات نفسها ، ابن قاضي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(68) حصن منيع يقع الى الغرب من مدينة حمص ، الحموي : معجم ، 264/2 .

(69) سبط : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(70) ابن القلانسي : ذيل ، ص348 ، ابن الأثير : الكامل ، 218/11 .

(71) ابن القلانسي : ذيل ، 346 ـ347 .

(72) الأصفهاني : خديدة ، 497/1 ، ابن العديم ، زبدة ، 31/2 .

(73) لم يعثر له على ترجمة .

(74) ابن قاضي ، الكواكب ، ص 153 .

أضرار مادية ولا بشرية تذكر[75] ، ثم تكررت في ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب، وأعقبه زلزال آخر عند آذان الظهر لم يسفر عن أضرار أيضا [76]، وتعرضت الشام في الثاني عشر من شوال عند طلوع الشمس 565هـ / 1569 م لزلزال عد من أخطر وأعنف في تاريخ البلاد، حتى انه لم ير مثله منذ ظهور الإسلام[77]، من حيث الخسائر المادية والبشرية، ففي مدينة حلب سقطت نصف قلعتها ، والعديد من المؤسسات والدور، وقد اختلفت المصادر التاريخية في تقدير حجم الخسائر البشرية، فقدرت عدد من تلك المصادر [78] أعدد القتلى ثمانين ألف قتيل، وهو رقم مبالغ فيه لكنه يعكس حقيقة الدمار الذي لحق بالمدينة، إلا أن اكثر الروايات اعتدالا كانت قد قدرتها بخمسة آلاف قتيل [79]. ومن نجا من أهالي حلب ولى خارج المدينة خوفا من معاودة الزلزال[80].

والمفارقة الغريبة ان هؤلاء الناس ممن بقوا خارج أسوار المدينة كانوا يخشون على أنفسهم من أن يتربص بهم الصليبيون [81] ، وهو أمر لا يقل خطورة عن الزلزال نفسه، حتى وصل الملك العادل نور الدين محمود إلى حلب في رمضان من السنة ذاتها، فوجد أسوارها وقلاعها وأسواقها وجوامعها قد تهدمت،

---

(75) ابن القلانسي : ذيل ، ص 351 .

(76) المصدر نفسه ، ص 352 .

(77) أبو شامة : الروضتين ، 184/1 .

(78) ابن الجوزي : المنتظم ، 230/10 ، سبط : مراة ، م1 ج8 / 174 .

(79) ابن العديم : زبدة ، 694/2 .

(80) أبو شامة : الروضتين ، 184/1 .

(81) المصدر نفسه، والصفحة .

فأعاد اعمارها وأحكم جميع أسوارها ثم بنى سورا ثانيا دائري الشكل الزيادة تحصينها[82] وكان يشرف بنفسه على أعمال البناء والترميم[83].

بينما خرب زلزال سنة 565هـ مدن الشام الأخرى مثل بعلبك وحمص وحماة وبارين [84] وشيزر [85] فتهدمت أسوارها وقلاعها . وسقطت الدور على سكانها، حتى فاق عدد القتلى ما كان متوقعاً[86]، فلما علم نور الدين بما حصل وهو بالبلقاء قبالة الصليبيين[87]، توجه الى بعلبك فأمر بإعمار سورها وقلعتها ثم توجهه صوب حمص وحماة وبارين فأعاد إعمار ما دمر[88].

وكان نور الدين شديد الحذر على البلاد وبارين على وجه التحديد التي لم يبق من سورها شيء البتة بحكم قربها من الصليبيين، فأعاد إعمارها وكان نور الدين نفسه يشرف على أعمال البناء حتى أعاد إحكام سورها[89].

أما مدينة دمشق فقد أخذ الزلزال منها مأخذا عظيما، فقد سقط كثير من مبانيها بما فيها الجامع الأموي، فسقطت شرفاته وسقوف المنابر، فكانت المدينة "تهتز مثل النخل في يوم ريح عاصف " [90]. والملفت في الأمر، انه على الرغم من قسوة الزلزال على المدينة إلا أن الخسائر البشرية كانت قليلة بسبب خروج

---

(82) ابن العديم : زبدة ، 2/694-695 ، ابن قاضي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(83) أبو شامة : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(84) حصن يقع بين حلب وحماة من جهة الغرب . الحموي : معجم ، 1/320-321 .

(85) ابن العديم : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، أبو شامة : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(86) ابو شامة : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(87) سبط : مراة ، م1 ، ج8 / 174 .

(88) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(89) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(90) المصدر نفسه ، م1 ، ج8/ 175 .

الناس إلى الأماكن المكشوفة، حتى قيل: إنه لم يصب إلا رجل واحد كان على باب جيرون[91].

وتهدمت أسوار المدن والقلاع الصليبية مثل إنطاكية وجبلة واللاذقية وحصن الأكراد الذي سقطت قلعته والسور المحيط به [92]، والمثير للاهتمام أن الصليبيين أنفسهم كانوا يخشون من مهاجمة نور الدين لهم، الذي كان يعد العدة للاستيلاء على حصن الأكراد، لكن تناهي الأخبار إليه بما أصاب بلاد المسلمين من الزلزال جعله يسارع في العودة لاعمار المدن الإسلامية المتضررة؛ لذلك انشغل الطرفان بعمارة ما خربه الزلزال وبذلك تبددت المخاوف من كلا الطرفين[93].

وترك الزلزال آثاراً نفسها على المجتمع، وعد بعض الدارسين ان ما حدث كأنه انتقام الهي جره عليهم – كما قالوا – ما هم فيه من مفاسد، وان العودة إلى الدين هو العلاج الناجح له. وعبر العماد الأصفهاني[94] عما حدث بالأبيات التالية:

جنبوا خطب العباد سهل كل خطب سوى النوى والبعاد

كنت في غفلة من الدين حتى صاح يوم الاثيل بالبنين هادي [95]

وقيل أيضا :

بحق أصيبت الأرض لما اشتكت من مقام أهل الفساد [96]

---

(91) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(92) المصدر نفسه ، م1 ، ج8/ 174 .

(93) نفسه المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(94) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(95) أبو شامة : الروضتين ، 185/1 .

(96) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

وتعرضت الشام الى زلزال آخر لا يقل عن سابقه خطورة وذلك في سنة 597هـ/ 1200م ترك آثاراً سيئة على دمشق فخرب كثيراً من الدور فيها، وخسفت إحدى القرى في بُصْرى ، بينما دمرت مدينة نابلس بالكامل حتى قيل إنه لم يبق فيها حائط [97] ، وكانت مدن الساحل مثل طرابلس وصور وعكا [98] ضمن النطاق التدميري للزلزال الذي قتل من جرائه خلق كثيرون. حتى إن إحدى المصادر قدرت عدد الضحايا بنحو مليون قتيل [99] وان من المؤكد ان مثل هذا العدد من الضحايا مبالغ فيه إلا انه يعكس حجم الكارثة التي تعرضت لها بلاد الشام، وفي شعبان من سنة 598هـ / 1201م . حدث زلزال آخر طال مدينة حمص فاصاب قلعتها فتهدمت الشرفة التي فيها في حين لم يبق في نابلس شيء، وخرب ما بقي منها، كما خرب حصن الأكراد [100] وضرب الشام زلزال آخر في سنة 600هـ / 1203م وكانت مدينة صور أكثر تأثرا من بقية المدن بعدما تهدم سورها[101].

وإذا كان الغضب الإلهي قد عبر عنه بهذه الكوارث الطبيعية المتمثلة بالزلزال،إلا انه وجد في لرخرب بمستوى المياه زيادة أو نقصانا تداعيات كارثية ذات تأثيرات اقتصادية واجتماعية خطيرة، فقد شهدت بلاد الشام في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي الكثير من الفيضانات، وربما من اشدها خطورة ما حدث في سنــة 516هـ / 1122 م. عندما زاد منسوب نهر الفرات زيادةً لم يعهد

---

(97) الذهبي : دول ، 79/2 .

(98) ابن الأثير : الكامل ، 171/11 ، أبو الفداء : المختصر ، 106/3 .

(99) الذهبي : العبر : 296/4 .

(100) سبط : مراة ، م1 ، ج8 /331 .

(101) ابن الأثير : الكامل ، 198/11 .

مثلها من قبل. فدخل الماء على ربض قلعة جعبر [102] وغرقت أكثر دوره ومساكنه[103].

ومن طريف ما يروى أن الفيضان حمل فرساً من الربض والقاه من فوق السور الى الفرات، وفي سنة 528 هـ / 1133 م هطل مطر غزير بعد القحط والجدب على أعمال طبرية، فجرفت السيول عدة مساكن وقذفتها إلى البحيرة[104].

وسقط سنة 530هـ/ 1135م ثلج كثير على دمشق واعمالها ففاضت السيول واختلطت انهار دمشق ببعضها . وغمر نهر بردى الأراضي المجاورة [105]. مما أدى إلى تلف المحاصيل والمزروعات، بينما شهدت حوران على إثره والبقاع حتى قلعة جعبر سنة 545هـ/ 1150 م سقوط ثلوج غزيرة لعدة أيام لم تألفها من قبل. وأجريت أودية حوران ففاضت آبارها [106]. بينما سقطت على البقاع وبعلبك سنة 541هـ/ 1151م ثلوج كثيفة أهلكت قطعانا كثيرة من الماشية، كما مكنت الصليبيين من أسر عدد من المسلمين [107] ، لكن تراكم الثلوج سهل للمسلمين فيما بعد من تخليص أسراهم واستعادة قطعان الماشية وملحقين بالأعداء هزيمة نكراء[108].

وشهدت دمشق في نيسان من سنة 547هـ / 1152م هطول أمطار غزيرة مصحوبة بالبرق والرعد، زادت بسببها مياه نهر بردى زيادة كبيرة وتصندل لونها

---

(102) قلعة تقع على الفرات بين بالس والرقة، وكانت تسمى قديما دوسر، وكان السلطان ملكشاه سلمها إلى الأمير سالم بن بدران عوضا عن حلب . الحموي : معجم ، 142/2 .

(103) ابن الأثير : الكامل ، 605/11 .

(104) ابن القلانسي : ذيل ، ص 323 .

(105) ابن قاضي : الكواكب ، 106/1 .

(106) ابن القلانسي : ذيل ، ص 312 .

(107) المصدر نفسه ، ص 317 –318 .

(108) سبط : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، ابن قاضي : الكواكب ، 189/1 .

. كما زادت مناسب الأنهار والعيون، ثم تواصل المطر مصحوبا ببرد وبأحجام كبيرة لم ير مثلها من قبل. فأهلكت الكثير من قطعان الماشية وتهدمت بعض الدور بغوطة دمشق بعد أن ركدت المياه في الحقول، فضلا عن الأضرار التي لحقت بالمزروعات واشجار الفاكهة[109].

وفي تموز الموافق جمادي الآخرة من عام 553هـ/1158م هطلت أمطار غزيرة على دمشق والبقاع. وارتفعت السيول حتى وصلت إلى نهر بردى، فكثر نحيب الناس كونها نزلت في غير أوانها[110]، وفي تشرين الثاني وحتى أوائل شباط من العام نفسه هطلت أمطار وثلوج غزيرة وسقط أيضا على داريا برد كبير وصف بحجم البيض[111] مما انعكس سلبا على الإنتاج الزراعي.

وإذا كانت زيادة المياه أكثر من حدودها الطبيعية، مثل الفيضانات المدمرة تشكل كارثة فإنَّ نقصها يفضي إلى كارثة محققة أيضا تهلك الحرث والنسل، فقد انتابت بلاد الشام بين الحين والآخر مواسم جفاف نتيجة لاحتباس الأمطار أو ندرتها، مما عمل على خلق أزمات اقتصادية واجتماعية ليست بخافية على الباحثين والمختصين.

ففي سنة 518هـ/1124م احتبس المطر ببلاد الشام ثلاثة أشهر في كانون الأول والثاني وشباط فلفت المزروعات. وعمّ البلاد الجدب والقحط، على الرغم من سقوط الأمطار فيما بعد إلا أنها لم تُحِ المزروعات، فغلت الأسعار في حلب ودمشق[112]، تحديدا؛ لقلة المعروض من المحاصيل الزراعية الضرورية، تقابلها

---

(109) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(110) المصدر نفسه ، ص 352 .

(111) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

(112) ابن القلانسي : ذيل ، ص 212 ، ابن العديم ، زبدة ، 582/2 .

والكثافة السكانية العالية في المدينتين، واستمر الحال على ما هو عليه، حتى سنة 519هـ/1125م، فهلك الضعفاء والفقراء من الناس جوعا[113].

واحتبس المطر سنة 543هـ/ 1148م عن دمشق وغوطتها ، وحوران والبقاعية والمناطق المجاورة لها. مما أدى إلى امتناع الناس عن الفلاحة والزراعة بعد أن يأس الناس من نزول المطر فنزح أهلها عنها، وما لبث المطر أن انهمر بعد ذلك فأحيا الله الأرض بعد موتها [114]، وبعد عام تكرر الحال في حوران والغوطة[115] وأعقبتها أمطار غزيرة استمرت لمدة أسبوع[116]، وفي سنة 552هـ/ احتبس المطر في وقته المعتاد عن حوران والبقاع، فارتفعت أسعار الغلة ثم عاد وانهمر في اول ذي القعدة، فارتوت الأرض، وانخفضت الأسعار[117].

وتعرضت بلاد الشام لأسوء موسم جفاف وذلك سنة 574هـ/ 1178م، فقد انقطعت الأمطار بالكلية، وأعقبها غلاء فاحش حيث بيعت فيه غرارة الحنطة بدمشق باثنتي عشر مكوكا [118] وبالموصلي بعشرين دينارا صورية [119]، فأقام الناس صلاة الاستسقاء، ولكن دون جدوى، فعدمت الأقوات فحدثت بعد ذلك مجاعة

---

(113) ابن الأثير : الكامل ، 624/11 ، ابن العديم : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(114) ابن القلانسي : ذيل ، ص 303 .

(115) إحدى الكور التابعة لمدينة دمشق وتعني مجتمع النبات . اشتهرت بأشجارها المثمرة حتى لقبت بإحدى جنان الدنيا تحيط بها الجبال من جميع جهاتها . الحموي : معجم ، 219/4 .

(116) ابن القلانسي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(117) المصدر نفسه ، ص 346 –347 .

(118) المكوك يساوي 14/1 عزارة دمشقية أي ما يعادل 14.6 كغم قمح . هنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة : كامل العسلي ، (عمان ، 1970) ، ص 78 .

(119) ابن الأثير : الكامل ، 451/11 .

شديدة اضطرت الناس إلى أكل الميتة. واستمر الحال على ما هو عليه حتى أواخر سنة 575هـ/ 1179م[120].

كما شهدت الشام عديداً من الظواهر الطبيعية غير المنضبطة، وكان لها تأثير على اقتصاد البلد، فقد تعرضت دمشق وحوران في الرابع والعشرين من أيار سنة 351هـ/ 1136م، لريح عاصف أعقبها سحاب اسود أظلمت له الدنيا، ثم أعقبها سحاب أحمر يخال للناظر انه نار موقدة [121]، وتبعها مطر شديد وبرد اضر بالمزروعات والأشجار المثمرة[122].

وكانت دمشق قد تعرضت لموجة من الجراد ألحقت بالمزروعات أضرارا فادحة. مما أدت الى ارتفاع الأسعار، فبلغت غرارة الحنطة أربعمئة درهم [123]، وفي يوم السبت السابع عشر من شعبان الموافق التاسع من نيسان سنة 541هـ/1137م، حدث في الغوطة والمرج رعد هائل على غير المعتاد، وتبعه مطر وبرد قدر زنة الواحد منها بثمانية دراهم. وقيل سبعة عشر درهما[124].

واجتاحت الشام سنة 541هـ/ 1146م أسراباً هائلة من الجراد بعد موسم شحيح المطر[125]، وفي سنة 542هـ/11488م، خيم على دمشق ظلام دامس أعقبه غيث ساكـن، اصفرت بعده السماء، حتى غدت بعين الناظر صفراء كالورس في الجبال وأشجار الغوطة. وأعقب ذلك رعود قاصفة، ارتعب منها الناس. ثم ظهرت

---

(120) المصدر نفسه .

(121) ابن قاضي : الكواكب ، 105/1 .

(122) ابن الأثير : الكامل ، 454/11 .

(123) ابن قاضي : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(124) ابن القلانسي : ذيل ، ص 268 .

(125) ابن قاضي : الكواكب ، 124/1 .

بعدها رائحة حرائق، ثم سكنت، ثم غطى المزروعات والأشجار غبار من البياض[126] مما سبب أمراضا للنباتات قللت من إنتاجيتها.

ووقع في داريا[127] سنة 553هـ/1158م برد كبير قيل: إنـَّها بأحجام اكبر من البيض[128]. فأتلفت المحاصيل، بينما هبت في يوم الجمعة - التاسع من جمادي الأولى سنـة 554هـ/ 1159م، ريح عاتية أتلفت المزروعات والثمار الصيفية والشتوية[129].

ومن الكوارث الطبيعية التي أصابت الشام. الأمراض والأوبئة التي كانت تنفثها الطبيعة من حين لاخر، حاصدة بها أرواح كثير من الناس. ففي سنة 451هـ/ 1146م وبعد.

موسم شحيح المطر أصاب الناس مرض في حلوقهم وتنفسهم. توفي من جرائه خلق كثير[130]، و أثناء حصار مدينة دمشق سنة 543 هـ/1148م من قبل الصليبيين انتشر فيها مرض الطاعون بعد قيام الصليبيين بتسميم الآبار وردم بعضها[131]، وقطع الأشجار التي بظاهر البلـد.

وفي سنة 549هـ/ 1154م ظهرت بدمشق أمراض مختلفة من الحُمِّيات التي لم تعرف أسبابها فطال الموت الشيوخ والصبيان [132]، بينما أصاب الشام سنة 575هـ/ 1179م وباء خطير سببه السرسام [133] حصد أرواح الكثير من الناس، وكان أهل الشام لا يكادون أن يدفنوا أمواتهم[134].

---

(126) المصدر نفسه ، 125/1 .

(127) قرية كبيرة مشهورة في الغوطة تابعة لمدينة دمشق . الحموي : معجم ، 431/2 .

(128) ابن قاضي : الكواكب ، 155/1 .

(129) ابن القلانسي : ذيل ، ص 357 .

(130) سبط : مراة ، م 1 ، ج 8 /120 .

(131) ابن القلانسي : ذيل ، ص 330 .

(132) المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

(133) السرسام : مرض من أعراضه رعاف مع زيادة في التنفس وتدمع العين وأرق مع ثقل اللسان مع بروز شرايين الوجه، ابن سينا : القانون في الطب ، (بغداد ، د. ت) ، 47/2 .

(134) ابن الأثير : الكامل ، 452/10 ، أبو الفداء : المختصر ، 61/3 .

خلاصة البحث

تناول البحث الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها بلاد الشام في القرن السادس الهجري مثل: الزلازل والفيضانات والجفاف وما نتج عنها من أمراض وأوبئة كان لها تأثيرات اقتصادية واجتماعية يشكل عبء كبير على بلاد الشام التي كانت مسرحا لصراع بين القوى الإسلامية والصليبيين المحتلين فكانت تذكي النار ضراما وتزيد الطين بلة، محدثة مزيداً من الدمار المادي والبشري .

Abstract

The Natural disasters in Syria in 6th AH; 12th BC, with Some of their social and economical dimensions

Sultan Ch. S.(*)

The research deals with the natural disasters that occurred in Syria in 6th AH such as earthquakes , floods and droughts. It also deals with consequence diseases and epidemics that influenced social and economical aspects of that have a great burden in Syria. At that time syria was a field of struggle between Islamic forces lifeand occupying crusders. As such the situation even worse and causing more human and physical destructions.

(*) College of Arts / University of Mosul.

الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر

خارطة رقم (1) نقلاً عن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية

بلاد الشام زمن الحملة الصليبية الأولى

خارطة رقم (2) نقلاً عن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية